

مساهمة الأفارقة في الحياة الثقافية بالأندلس في عصر الطوائف والمرابطين

بقلم : الشاذلي بويحيى

الرحلة في طلب العلم أحد أركان الحياة الثقافية في البلاد الإسلامية . وهي من دعائم الحضارة العربية الإسلامية لأنها كانت أساس الحركة العلمية الكبرى عند انطلاقها منذ فجر الإسلام وفي مهد العربية والإسلام أي في بلاد المشرق ذاتها حين كانت البادية العربية وجهة علماء اللغة والمدينة وجهة طلاب الحديث .

وكان العرب الفاتحون يتولّون نشر الإسلام وتعليم العربية في كل قطر فتحوه فكانت الحركة العلمية في البلاد المفتوحة تلقينا من العرب الفاتحين في أول أمرها ثم تخرج عليهم من أبناء البلاد المفتوحة أجيال من المثقفين أخذوا عن أولئك العرب الفاتحين ومن أصحابهم من العلماء وما لبثوا أن صاروا يؤمّون مهد العربية والإسلام يأخذون مباشرة عن مشاهير علمائه .

واقترنت هذه الرغبة في طلب العلم بأداء فريضة الحج فاستمرت الرحلة إلى بلاد المشرق بلا انقطاع ممّا جعل الحضارة العربية الإسلامية تنتشر واحدة - أو تكاد - بين أقطار العالم الإسلامي رغم امتداد أطرافها واختلاف عناصرها

وتباينها أحيانا . واشتهر أهل المغرب والأندلس أكثر من غيرهم بالرحلة إلى المشرق لطلب العلم .

وهكذا كانت رحلة العلم من مهدد بالشرق إلى أطراف البلاد الإسلامية على أيدي علماء الشرق المنتشرين في البلاد تقابلها رحلة أبناء هذه الأقطار إلى الشرق ينهلون مباشرة من علم أيمته ثم يعودون إلى بلادهم فتنضم جهودهم إلى جهود أولئك الشرقيين لنشر علم منبعه واحد هو الشرق .

غير أن بعض الأمصار البعيدة عن مهد العربية والإسلام ما لبثت أن صارت بدورها مراكز علم نبغ فيها أئمة في شتى العلوم فأصبحت مراحل يمرّ بها طلبة العلم ويتزوّدون منها بزاد وفير قد يغنيهم أحيانا عن مواصلة السير إلى الشرق حتّى صارت بدورها ديار علم تشدّ لها الرحال أحيانا قصدا لا عرضا . ومن بين هذه المراحل مدينة القيروان في طريق الأندلس إلى الشرق (1) .

فمنها انتشر مذهب مالك إلى الغرب والأندلس بعد أن رجّح الإمام سحنون فقه مالك وأصحابه من أهل المدينة وألف فيه « مدوّنته » الكبرى وأخذها عنه أهل المغرب والأندلس وقد كانت حلقة تضمّ حوالي أربعمئة طالب ولم يعرف مثل هذا العدد لأستاذ (2) . فمنذ عهد الإمام سحنون أي النصف الأوّل من القرن الثالث صار الطلبة والعلماء من المغرب والأندلس يقصدون القيروان لذاتها كعبة للعلم لا كمجرد مرحلة في طريق الشرق .

(1) انظر في ذلك شهادة ليفي بروفنصال في كتابه عن تاريخ إسبانيا الإسلامية :
E. Lévi-Provençal : *Histoire de l'Espagne musulmane*, 3 vol. Paris - 1950-53, I 241-2.

(2) حسن حسني عبد الوهاب : « الإمام المازري » . تونس 1955 ص 25 حيث يقول :
« وتوارد عليه [يعني الإمام سحنون] عدد لا يحصى من المتعلمين من أنحاء المغرب ولا سيما الأندلس وصارت حلقة تدريسه أكبر حلقة عرفت لأستاذ قيل انه كان يجلس فيها أربعمئة طالب علم » .

وتمادت هذه السنّة بعد وفاة الإمام سحنون سنة 854/240 لعلّو صيت مدرسة القيروان العلميّة وصفتها معقلا للمالكيّة رغم انتصاب دولة بني عبيد وسيطرة الشيعة على إفريقية في ظلّها . فالقرن الرابع بإفريقية رغم كونه قرن الدولة الفاطميّة وخلائفها من بني زيري إنّما هو قرن ابن أبي زيد القيرواني صاحب « الرسالة » وغيرها من التآليف الجليلة في الفقه والملقّب لذلك « بمالك الأصغر » . ولم ينطفئ المشعل بعد وفاة ابن أبي زيد سنة 996/386 فقد أخذ من يده عالم قيرواني آخر هو أبو الحسن علي القابسي المتوفى سنة 1012/403 .

ففي كتب الطبقات الأنديسيّة قلّ أن ترد ترجمة عالم أو أديب أندلسي رحل إلى المشرق في النصف الثاني من القرن الرابع دون أن تذكر له رواية بالقيروان عن ابن أبي زيد أو القابسي أو عنهما معا . ولئن لم يدرك جميع هؤلاء العلماء الأنديسيين عصر الطوائف والمرابطين - وهو موضوع بحثنا - فإنّ منهم من تخرّج عليه أجيال من علماء عصر الطوائف وأدبائه كابن الفرضي المتوفى سنة 1012/403 . فقد أخذ عن ابن أبي زيد وأبي جعفر أحمد بن دحمون وأحمد بن نصر الداودي وغيرهم بالقيروان سنة 992/382 (3) . وتخرّج عليه خلق كثير بالأندلس من رجال عصر الطوائف وترك فيهم كتبه الكثيرة المفيدة .

وممّن أدرك عصر الطوائف وانتشر تعليمه وتآليفه في علوم القرآن بين أجيال عصر الطوائف والمرابطين بالأندلس أبو عمرو الداني المتوفى سنة 441/1050 وكان قد سمع بالقيروان أثناء سنة 397/1006 .

ولئن طبّقت سمعة ابن أبي زيد الأرض شرقا وغربا بفضل « رسالته » ودوره الحاسم في نشر مذهب مالك فإنّ القابسي لا يقلّ عنه تضلّعا في الفقه والحديث وعلم الكلام . واشتهر تعليمه فوضع « الرسالة المفصّلة لأحوال

(3) ابن بشكوال : كتاب الصلة ط . القاهرة 1955 . عدد 571 ص ص 246 - 250 .

المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين (4) « وجلس للتعليم بالقيروان أكثر من أربعين سنة منذ رجوعه من الشرق سنة 967/357 إلى أن مات سنة 1012/403 . وقد روى ابن بشكوال في ترجمة أحد تلامذة القابسي الأندلسيين : ابن الطرابلسي المتوفى سنة 1076/469 أن ثمانين طالبا من أفارقة وأندلسيين كانوا مجتمعين بغرفة في عليّة للقابسي يستمعون إلى دروسه قبيل وفاته بأشهر (5) . فالكثير من هؤلاء الذين حضروا ذلك المجلس من الأندلسيين صاروا من رجال عصر الطوائف وعلماؤه .

وقد أحصى روجي هادي إدريس أكثر من خمسين تلميذا أندلسيا لابن أبي زيد القيرواني وأربعة وثلاثين للقابسي أخرجهم من كتب الطبقات الأندلسية وحاول التعريف بهم وكلّهم من العلماء (6) . وأخذ عدد كبير من الأندلسيين عن غير ابن أبي زيد والقابسي كالذين أخذوا عن أبي بكر بن عبد الرحمان (ت. 432 أو 435/43 - 1040) وأبي عمران الفاسي (ت. 430/1038) وقد أحصاهم أيضا ر. ه. إدريس (7) . وتذكرهم كتب التراجم كما تذكر من روى عنهم من رجال الأندلس في عصر الطوائف والمرابطين فمنهم مثلا محمد بن اسماعيل بن محمد السرقسطي الفقيه المقرئ . سكن القيروان مع أبيه وبها تعلم سنة 410 وله رحلة إلى الشرق ثم رجع إلى سرقسطة حيث ولي القضاء (8) . ومنهم محمد بن علي بن عبد المؤمن الرعيني من أهل غرناطة

(4) نشرها أ. ف. الأهواني في طبعة ثانية. القاهرة 1955 إثر كتاب : التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي .

(5) قال ابن الطرابلسي : « كنا عند أبي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي في نحو من ثمانين رجلا من طلبة العلم من أهل القيروان والأندلس وغيرهم من المغاربة في عليّة له . . » كتاب الصلة (عدد 354) ج 1 ص 156 .

(6) Roger H. Idris : *Deux juristes kairouanais de l'époque ziride : Ibn Abî Zahd et al Qâbisî*, A.I.E.O. XII 1954, Alger, pp. 122-198

(7) R.H. Idris : *Deux maîtres de l'école juridique kairouanaise sous les Zirides (XIè siècle) : Abû Bakr Ibn 'Abdar-Rahmân et Abû'Hureên al-Fâsî*, A.I.E.O. XIII 1955, Alger, pp. 30-60.

(8) عن كتاب الذيل والتكملة لعبد الملك المراكشي . تلخيص حسين معمرى (بالفرنسية) . الجزائر 1951 ص 39 .

المتوفى سنة 6/540 - 1145 . ففي طريقه إلى الحج سمع بالقيروان « الكتاب الجامع في الأحكام » لزيدون بن علي السبيسي القيرواني من ابنه عبد الوهّاب حدثه به عن أبيه وقفل فسمع منه ببلده [غرناطة] وولي الأحكام به وحدث عنه خلق كثير بالأندلس (9) . كما أن من الأندلسيين من أخذ عن علماء إفريقية على طريق الإجازة ومنهم ابن خير الإشيلي - المتوفى سنة 1179/575 - صاحب « الفهرسة » . فقد أخذ جميع تأليف معاصره الإفريقي الإمام المازري لإجازة منه بخطه (10) .

ولئن طال الحديث إلى هنا عن فقهاء القيروان ومن أخذ عنهم من علماء الأندلس فلأن كتب الطبقات تعنى خاصة بعلماء الدين إذ الرحلة في طلب العلم تعنى أساسا علوم الدين . لكن الطلاب كانوا يقصدون أيضا علماء اللغة والأدب . و« مدرسة القيروان الأدبية » آنذاك لا تقل شهرة وعلوّا عن قرينتها في الحديث والفقه (11) . كما أن أبا عبد الله القزّاز المتوفى سنة 412/1021 (12) وإبراهيم الحصري المتوفى سنة 1022/413 (13) لا يقل دورهما التعليمي عن دور ابن أبي زيد والقاسي . فلقد شهد ابن رشيق لإبراهيم الحصري بالزعامة الأدبية لدى شبّان القيروان كما أشار إلى انتشار كتبه خارج إفريقية بصقليّة وغيرها (14) . وقد أكّدنا في غير هذا (15) على دور

(9) المصدر السابق ص 121 . وابن الأبار : كتاب التكملة ط. القاهرة 1956 ج 1 صص 448 - 449 .

(10) ابن خير : الفهرسة . ط. بيروت 1963 ص 344 .

(11) انظر كتابنا : الحياة الأدبية بإفريقية زمن بني زيري (بالفرنسية) :

Cyedly Bouyahia : *La vie littéraire en Ifriqiya sous les Zirides*, Tunis 1972.

وبه ترجمة جميع من نذكرهم من الأدباء الأفارقة في هذا البحث .

(12) أنظر كتابنا المذكور انفا ص ص 59 - 62 وفي الفهرس .

(13) المصدر السابق ص ص 20 - 24 وفي الفهرس .

(14) ابن بسام : كتاب الذخيرة . القسم الرابع . الجزء الثاني ص 593 من ط . الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس 1979 .

(15) في « حوليات الجامعة التونسية » العدد الأول سنة 1964 ص ص 9 - 18 .

إبراهيم الحصري الحاسم في ازدهار الأدب بالمغرب والأندلس حيث عرف بأدب المحدثين في عصره من أهل الشرق ونشر منه نماذج ومختارات ضافية رصّع بها كتابه « زهر الآداب » حرصاً منه على تعليم ما يسمّيه لغة أهل العصر . فابن بسّام عندما يترجم له في كتاب الذخيرة ينسى تعصّبه المفرط للأندلسيين وانتقاصه الأفارقة عامّة فينوّه بشأن إبراهيم الحصري ويلجّ على الرحلة إليه من جميع الآفاق للأخذ من أدبه وعلمه فيقول : « كان أبو إسحاق هذا ... صدر النديّ ونكتة الخبر الجلي وديوان اللسان العربي راض صعبه وسلك أوديته وشعبه وجمع أشتاته وأحيا مواته حتى صار لأهله إماما وعلى جدّه وهزله زامما . وطنّت به الأقطار وشُدّت إليه الأقتاب والأكوار وأنفقت فيما لديه الأموال والأعمار وهو يقذف البلاد بدرر صدفها الأفكار وسلوكٍ ناظمها الليل والنهار . عارضَ أبا بحر الجاحظ بكتابه الذي وسمه « بزهر الآداب وثمر الألباب » فلعمري ما قصر مداه ولا قصّرت خطاه (16) » .

أمّا القزّاز فقد تكرّر ذكره وذكر مؤلفاته في كتب الطبقات الأندلسيّة (17) وكان ينعت فيها « باللّغويّ الكبير (18) » . وفي كلام ابن بسّام عن الفقيه المقرئ الأندلسيّ أبي عامر البُماري قوله : « لقي شيخ القيروان في العربيّة ابن القزّاز وأديبها الحصري (19) » ويردّده المقرئ نقلا عن الذخيرة (20) .

ورغم سقوط القيروان في منتصف القرن الخامس على أيدي بني هلال فإنّ رواية أهل الأندلس عن شيوخ إفريقية في شتّى العلوم لم تنقطع إذ لم يزل

(16) الذخيرة . القسم الرابع . المجلد الثاني ص . 584 .

(17) أثبتنا بعض هذه المصادر في كتابنا المذكور « الحياة الأدبية بإفريقية . . » ص 62 .

(18) المطرب لابن دحية ط . القاهرة 1954 ص 88 .

(19) الذخيرة . القسم الثالث . المجلد الأول ص 529 - 530 .

(20) نفح الطيب . ط . بيروت 1968 ، الجزء الثاني ، ص 110 .

نور « مدرسة القيروان » يشعّ من مدائن إفريقيةٍ أخرى كالمهديّة قاعدة إمارة بني زيري بعد خراب القيروان وبها سمع أبو بكر بن العربي حافظ الأندلس وقاضي إشبيلية (المتوفى سنة 1148/543) من الإمام المازري (المتوفى سنة 1141/536) وكذلك عليّ بن صاعد اللّبيّ إمام القراءات بالأندلس (المتوفى سنة 1152/547) والشّلبّي (المتوفى سنة 1156/551) وابن عزيمة (المتوفى في حدود سنة 1145/540) - وهو من شيوخ ابن خير صاحب الفهرسة - وابن سعادة (المتوفى سنة 1160/555) وغيرهم من الأندلسيين الأعلام (21). كما سمعوا من غير المازري ومن غير علماء الحديث - شأن جميع طلاب العلم في كلّ مكان - فقد قال ابن العربي : « كنت أحضر عند الشيخ الفقيه الإمام المقرئ الأديب الشاعر أبي الحسن علي بن محمّد بن ثابت (22) وهذه « المقدمة » وشروحها وغير ذلك من تواليفه تقرأ عليه أيّام كوني بالمهديّة في شهور خمس وثمانين وأربعمائة - 485 - » وبه حدّث ابن خير (23). وغير هؤلاء كثير في كتب الطبقات والتراجم الأندلسية . وكثرة عددهم وبعد صيت المشهور منهم دليل على مدى مساهمة علماء إفريقية وأدبائها في ازدهار الثقافة بالأندلس في عصرهم عصر الطوائف والمرابطين .

* * *

ومن الطبيعي أن يحمل هؤلاء الطلبة عند عودتهم إلى وطنهم الأندلس كتبهم التي درسوها وأعجبوا بها فيدرّسوها بدورهم . فقد جاء في « معالم الإيمان » « أن الواردين لقراءة العلم بالقيروان من محبّتهم في المدوّنة أكثروا من ثمنها فاشترّوا ما بالقيروان منها حتى عدمت منها فأثّروا إلى الشيخ أبي

(21) انظر حسن حسني عبد الوهاب : الإمام المازري . ص 52 - 53 نقلا عن نفح الطيب . الجزء الثاني ص 650 ، 155 - 156 ، 158 .

(22) يعني به الحداد الخولاني . انظر ترجمته في كتابنا المذكور « الحياة الأدبية . . » ص 52 - 53 .

(23) الفهرسة ص 319 - 320 ونفح الطيب . الجزء الثاني ص 28 . ويعني « بالمقدمة » كتاب « الإشارة » للحداد الخولاني هذا .

القاسم السيوري (المتوفى سنة 460 أو 69/462 - 1067) وعرفوه فأملأها عليهم من رأسه (24) « . وقل مثل ذلك في غير المدونة من تأليف علماء القيروان وأدبائها . ولا غرو أن عددا كبيرا من مؤلفات القاسي مثلا قد رجع بها أولئك الطلبة الذين رأينا كثرتهم في حلقة وقد ذكر منها ابن خير في الفهرسة (25) ستة يروونها عن سنيين مختلفين ينتهي أحدهما إلى شيخه أبي محمد بن عتاب . وقد يكون في وفرة ما بقي إلى الآن من هذه التأليف الإفريقية في مكتبات إسبانيا - لاسيما مكتبة الاسكوريال - ما يؤكد حمل الطلبة كتباً عديدة من القيروان والمهدية إلى الأندلس .

ثم إن الأفارقة الذين هاجروا إلى الأندلس قد حملوا معهم كتباً إفريقية من تأليفهم أو من تأليف مواطنيهم وانتشرت هذه الكتب بين أهل العلم وصارت من كتب التدريس في شتى العلوم بالأندلس .

وقد بدأ دخول الكتب الإفريقية من قبل عصر الطوائف منذ أن انتشر مذهب مالك في المغرب والأندلس بفضل « مدونة » سحنون ثم « رسالة » ابن أبي زيد . وقد أرسل ابن أبي زيد بنسخة منها إلى قاضي القضاة ببغداد وبأخرى إلى ابن أبي زرب بقرطبة فجحدها هذا ورام سلعها . وبقيت هذه الكتب في برامج التدريس بالأندلس منذ قرون ككتاب « الزهد وما يجب على المتناظرين من حسن الأدب » لمحمد بن سحنون (المتوفى سنة 870/256) وكتاب « آداب المعلمين » له أيضا (26) وكذلك لأبي العرب التميمي (المتوفى سنة 944 - 5/333) كتاب « المحن » (27) وكتاب « مناقب سحنون بن سعيد

(24) « معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان » للديباج وابن ناجي ؛ ط. تونس سنة 1320 ؛ الجزء الثالث ص 226 .

(25) ص 296 .

(26) الفهرسة 301 - 302 .

(27) المصدر السابق ص 301 .

وسيرته وأدبه» (28). وفي ذكر هذا الكتاب بفهرسة ابن خير دليل على بقاء أهل الأندلس على وفائهم لصاحب «المدوّنة» بعد ثلاثة قرون من وفاته .

وتماذى ورود كتب الأفارقة على الأندلس إلى عصر المرابطين – ولا نهتمّ هنا بما بعده – بلا انقطاع سواء في ذلك المؤلّفات القديمة والجديدة . فقد رأينا إقبال «الأجانب» على شراء «المدوّنة» بالقيروان في منتصف القرن الخامس أي بعد قرنين من تأليفها وكذلك فإنّه لا يكاد يظهر كتاب جديد بإفريقية حتى يجتلبه علماء الأندلس وقد يطلبون الإجازة لتدريسه . فابن خير الإشبيلي (المتوفى سنة 1179/575) يخبرنا أنّه استجلب مؤلّفات معاصره الإفريقيّ الإمام المازري ورواها عنه بالإجازة فيقول عند ذكر كتاب «شرح التلقين» : «حدّثني به مؤلّفه المازري رحمه الله إجازة فيما كتب به إليّ مع سائر توافقه ورواياته رضي الله عنه» (29) . ويكرّر ذلك عند ذكر كتاب «المعلم بفوائد كتاب مسلم» فيقول : «حدّثني به مؤلّفه رضي الله عنه إجازة فيما كتب به إليّ من المهدية بخطه رحمه الله» (30) . ثمّ إنّ الإجازة في حدّ ذاتها طريق من طرق انتشار العلم وتأثيره لأن في ذلك دخولا لهذه الكتب وإجازة لتدريسها . والذين أجاز لهم المازري من مشاهير علماء الأندلس ما عدا ابن خير الإشبيلي كثير يذكر حسن حسني عبد الوهّاب من بينهم الفيلسوف ابن رشد الحفيد (المتوفى سنة 1198/595) وقد ناهز الثمانين (31) .

أمّا في ميدان اللّغة والأدب فقد سيطر شيخا القيروان القزّاز وإبراهيم الحصري على المغرب كلّهُ وصقليّة والأندلس منذ بداية القرن الخامس . وانتشرت كتبهما في تلك الأقطار . فيذكر ابن خير للقزّاز ثلاثة من مؤلّقاته :

(28) المصدر السابق ص 297 .

(29) الفهرسة ص 344 .

(30) المصدر السابق ص 196 .

(31) الإمام مازري ص 53 .

كتاب « المثلث » وكتاب « الظاء » وكتاب « الحروف » (32) برواية شيخه أبي محمد بن عتاب ويذكر لإبراهيم الحصري كتاب « زهر الاداب » وكتاب « النور والنور » (33) ويعني به « نور الطرف ونور الظرف » بينما يذكر ابن الأبار للقرّاز كتابا رابعا هو أعظم كتبه وأجلّها : « الجامع في اللغة » يرويه علماء الأندلس سماعا عنه بالقيروان (34) .

وفي عصر المرابطين كان اليسع بن عيسى بن اليسع الغافقي الأندلسي يروي كتاب « العمدة » لابن رشيق عن جعفر بن محمد بن شرف القيرواني بالإجازة عن ابن شرف أبيه عن ابن رشيق مؤلفها (35) .

وفي كثرة كتب الأفارقة التي يذكرها ابن خير الإشيلي في « الفهرسة » عبرة للباحث لأنّ كتب « الفهرسة » كتب تدريس في الأندلس رواها ابن خير عن شيوخه وجلّهم من الأندلسيّين ورواها هؤلاء الشيوخ الأندلسيّون عن غيرهم من الأندلسيّين أو من الأفارقة . ثم إننا رأينا من هذه الكتب ما وصلت روايته إلى ابن خير أو إلى شيخه ابن عتاب عن طريق سنيين مختلفين وفي ذلك دليل على كثرة تداول هذه الكتب وتعدّد رواتها ومدرّسيها بالأندلس .

وشغف أهل الأندلس بهذه الكتب إلى حدّ أنّ التآليف الأندلسيّة لم تمنع رواج أشباهها من التآليف الإفريقيّة : فرغم نبوغ أئمّة الأندلس في علوم القرآن مثلا وعلى رأسهم أبو عمرو الداني (المتوفى سنة 1053/444) فإنّ مؤلفات للأفارقة ككتاب « اختلاف قراء الأمصار » لابن سفيان القيرواني (المتوفى في بداية القرن الخامس) وقصيدة علي الحصري (المتوفى سنة 1095/488)

(32) الفهرسة ص ص 362 - 363 .

(33) المصدر السابق ص 380 .

(34) كتاب التكملة، ج 1 ص 133 .

(35) خريدة القصر للعماد الأصفهاني . قسم شعراء المغرب والأندلس ط . تونس 1971 ج 2 ص 173 .

في قراءة نافع لم تزل تدرّس في حلقات العلم بالأندلس زمن ابن خير أي في القرن الخامس (36). وفي تدريس القرآن نال علي الحصري القيرواني بالأندلس لقب «الأستاذ الأعلى» (37).

ومن اهتمام أهل الأندلس بكتب الأفارقة وأشعارهم أن تناولوها بالشرح والتلخيص والمعارضة معجيين أو منتقدين. والأمثلة من ذلك كثيرة: منها أن المقري يذكر لابن السراج الشتمري (المتوفى سنة 1154/549) كتاب «مختصر العمد» من تأليف ابن رشيق القيرواني ويذكر للطفيل العبدى الإشبيلي المعروف بابن عزيمة (المتوفى سنة 1145/540) «شرح القصيدة الشقراسية» لعبد الله الشقراسي الإفريقي (المتوفى سنة 1054/446) وكتاب الفريدة الحمصية في شرح القصيدة الحصرية» وهي قصيدة علي الحصري القيرواني في قراءة نافع (38). ومن ذلك معارضات أشعار علي الحصري: جاء في كتاب الذخيرة لابن بسام قوله عن الوزير الكاتب الأندلسي أبي الحسين يوسف بن محمد بن محمد بن الجدل: «له من رقعة خاطب بها من استنهضه إلى معارضة الحصري في قصائده «المعشرات» (39) ... ويتناشد شاعر الأندلس ابن خفاجة والفقهاء ابن أبي تليد شعرا لابن رشيق وهما بمنزلة بشاطبة سنة 1087/480. فيعجب ابن أبي تليد بأبيات منه ويثني عليها معلّلا استحسانه. فيوافقه ابن خفاجة على جمال الأبيات لكنّ غيره الشاعر تحمله على انتقادها.

(36) المصدر السابق ص ص 38 - 39 و 74.

(37) المطرب لابن دحية ص 13.

(38) نفح الطيب ج 2 ص 238 و ص 155 - 156 ؛ عن الشقراسي و«القصيدة الشقراسية» ، انظر كتابنا «الحياة الأدبية ...» المذكور ص ص 146 - 148 و 328 و 419.

(39) الذخيرة لابن بسام. القسم الثاني. المجلد الثاني ص 557 ؛ عن «معشرات» علي الحصري انظر كتابنا «الحياة الأدبية ...» ص 182 و 183 و 419.

ويطول الحوار بين الرجلين وينتهي إلى معارضة ابن خفاجة أبيات ابن رشيق .
يقول ابن خفاجة : « فقلت أنسج على ذلك المنوال ... » (40) .

* * *

ففي هذين التياراتين - رحلة أهل الأندلس إلى إفريقية في طلب العلم
ورحلة الكتب الإفريقية إلى الأندلس - صورة من صور مساهمة الأفارقة
في ثقافة الأندلس . وكان لهذه المساهمة صورة أخرى هي مساهمة مباشرة
تتمثل في هجرة العلماء والأدباء من إفريقية إلى الأندلس حيث يثّون علمهم
بالتدريس وينشرونه بالتأليف وتحفل بهم المجالس ويخوضون غمار
المناظرات العلمية والخصومات الأدبية ويعلو صوت الشعراء منهم فيتنافس
فيهم ملوك الطوائف بينما يحسدّهم على ذلك شعراء الأندلس فتتشأ المساجلات
والمهاجاة ويتحزّب الشعراء كتلا تتآزر وأخرى تتنافر وفي كلّ ذلك غنم
للحياة الثقافية بالأندلس .

فهذا مكّي بن أبي طالب القيسي الملقّب بحمّوش قد ولد بالقيروان
سنة 966/355 ودخل الأندلس سنة 1003/393 موفور العلم والأدب وقد أشرف
على سنّ الأربعين . فاستوطن قرطبة حيث صار إماما خطيبا بجامعها الأعظم
وجلس يدرّس علوم القرآن إلى أن مات سنة 1054/437 . وتخرّج عليه من
علماء الأندلس خلق كثير من بينهم أبو الوليد الباجي (403 - 1012/474 -
1081) . ومكّي هو الذي أدخل إلى الأندلس كتب شيخه القزّاز في النحو
واللغة والأدب وأدخل كتباً لغير القزّاز من الأفارقة يرويها عنه علماء
الأندلس . وله مؤلفات عديدة في علوم القرآن من تفسير وقراءات وناسخ
ومنسوخ وفي الفقه والنحو والفلسفة . وكان شاعرا ولغويّا وأديبا وانفعت
به الأندلس زمنا طويلا وافتخر به أهلها حتى إن ابن سعيد الأندلسي جعله في

رأس قائمة علماء الأندلس الذين يفخر بهم على غيرها من البلاد وهو إنما يفخر بهم قبل كل شيء على القيروان مسقط رأس مكّي بن أبي طالب ومورد علمه ومنشأ نبوغه ! (41) وتغلب على مكّي بن أبي طالب نبة « الأندلسي » أو « القرطبي » وتشر له اليوم كتب ويذكر اسمه في النصوص القديمة والحديثة ونسبه الحقيقي مغموّر بل وهويته أيضا مجهولة أحيانا (42) .

ومن الطريف حقاً والمؤسف أيضاً ما قرأناه في أحد الأعداد الأخيرة من النشرة التونسية Les Cahiers de Tunisie (43) : رسالة لعالم تونسيّ بتاريخ 1875/1292 يذكر فيها « سلسلة فنّ الفقه موصلة للإمام مالك » وتبدأ هكذا — بعد الحمدلة — : « يقول كاتبه إبراهيم بن محمد البخري التوزري : إنّي أخذت فنّ الفقه بالديار المصرية عن أستاذي الشيخ سيدي ... وهو عن ...

(41) ذيل ابن سعيد برسالته رسالة ابن حزم في الرد على ابن الربيب القيرواني . وستعرض إلى هذه القضية كلها بعد قليل في هذه الدراسة . ويقول ابن سعيد في بداية رسالته : « رأيت أن أذيل ما ذكره الوزير الحافظ أبو محمد بن حزم من مفاخر أهل الأندلس بما حضرني والله تعالى ولي الإعانة . أما القرآن فمن أجل ما صنف في تفسيره كتاب « الهداية إلى بلوغ النهاية » في نحو عشرة أسفار صنفه الإمام العالم الزاهد أبو محمد مكّي بن أبي طالب القرطبي . وله كتاب « تفسير إعراب القرآن » . وعد ابن غالب في كتاب « فرحة الأنفس » تاليف مكّي المذكور فيبلغ بها 77 تاليفاً وكانت وفاته سنة 437 » . انتهى كلام ابن سعيد في فصح الطيب ج 3 ص 179 . ويعلق إحسان عباس محقق نفح الطيب على هذا قائلاً : « ومن الغريب أن ابن حزم أغفل ذكره [يعني ذكر مكّي بن أبي طالب] مع أنه عاصره » . لكن الغريب هو استغراب إحسان عباس لأنه ذكر في هذا التعليق ذاته مصادر ترجمة مكّي بن أبي طالب وبدأها بكتاب الصلة لابن بشكوال وفيه أن مكّي بن أبي طالب ولد وشب وتعلم بالقيروان . لكن لعل عذر إحسان عباس أن ابن حزم بنى مفاخرته بأهل الأندلس على قاعدة تجعل الرجل ينسب إلى مكان هجرته . غير أن ابن حزم كأنه أحجم عن تطبيقها على مكّي بن أبي طالب فلم يذكره ضمن أعلام الأندلس . (انظر ترجمة مكّي بن أبي طالب في كتابنا « الحياة الأدبية بإفريقية زمن بني زيري » ص ص 129 - 130) .

(42) صدر أخيراً كتاب يحمل العنوان التالي : « الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه صنع أبي محمد مكّي بن أبي طالب العتيبي [كذا] المتوفى سنة 437 » بتحقيق د. حسن فرحات . طبع سنة 1976/1396 بدون ذكر مكان الطبع ولعله الرياض من المملكة العربية السعودية . لم نطلع على الكتاب ولكننا نتساءل هل عرف محققه من هو مكّي هذا وقد التبس عليه في الاسم « القيسي » فقرأه « العتيبي » . ذلك أن هذا الإفريقي القيرواني صار يعرف بالأندلسي أو القرطبي منذ أن استوطن الأندلس فإذا عثر له على مخطوط لا يحمل أحد هذين النسيين صار من المغمورين .

(43) عدد 105 - 106 سنة 1978 حيث نشرت الرسالة التي تهما في نصها العربي .

وهو عن ... » حتى يصل في هذا السند الطويل إلى قوله : « ... وهو عن أبي بكر محمد بن الوليد بن خلف الطرطوشي وهو عن أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي وهو عن الإمام مكّي القيسي الأندلسي وهو عن الإمام أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة ... » ويتواصل السند إلى الإمام مالك . فنرى إذن هذه السلسلة الكاملة تأتي من المدينة إلى مصر فالقيروان فالأندلس فمصر فتوزر بالبلاد التونسية . فأهمّ حلقاتها تونسية وقد تلاشت فيها نسبة مكّي بن أبي طالب التونسية وأبدلت بالأندلسية ولم يتفطن إليها مواطنه البختري التوزري مؤلف هذه الرسالة . فلننبّه إليها مواطنه الآخر ناشر الرسالة : الزميل علي الشنوفي .

ليس غرضنا هنا بيان مفاخر تونس والقيروان إنّما غرضنا — بعد التحقيق العلمي — بيان مساهمة مدرسة القيروان في ازدهار الثقافة الأندلسية في عصر معين . ونصيب مكّي بن أبي طالب من هذه المساهمة كبير فوجب إثبات هويته ونسبته القيروانية .

ومن ذريّة مكّي بن أبي طالب ولده محمد وكان من عظام رجال قرطبة وقد اعتنى أبوه بتعليمه . قال عنه ابن بشكوال : « روى عن أبيه أكثر ما عنده ... ولي أحكام الشرطة والسوق بقرطبة مع الأعباس وأمانة الجامع وكان محمودا في ما تولاه من أحكامه . وكان له حظّ وافر من الأدب وكان حسن الخطّ جيّد التقييد وتوفي سنة 474 ومولده سنة 414 ... قال لي ذلك ابنه الوزير أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكّي شيخنا » (44) . فحفيد مكّي أيضا كان وزيرا عالما أخذ عنه ابن بشكوال وترجم له (45) ونوّه بعلمه في الآداب واللغات وبكثرة الكتب التي جمعها من ذلك . وذكر أنّه توفي سنة 535/ 1140 .

(44) كتاب الصلة . ج 2 ص 523 .

(45) في كتاب الصلة ج 1 ص 129 .

وتنوّه بعض المصادر الأندلسيّة بشأن العالم الأديب الرّحالة الإفريقي ابن الضابط السفاقصي وإن ضنّت عتاً بأخباره . لم يستوطن ابن الضابط بلاد الأندلس وإنما قضى بها عامين من سنة 1044/436 إلى سنة 1046/438 يجوز أقطارها ويدرس الحديث عن ظهر قلب ويشرحه ويرجعه إلى سنده وذلك حيثما حلّ من ربوع الأندلس . فلقد أخذ عنه مشاهير علماء الطوائف من بينهم الحميدي (المتوفي سنة 1095/488) صاحب « جذوة المقتبس » وترك بالأندلس أصدقاء تواصلت المراسلة بينه وبينهم وجلب إليها كتباً نفسية كان قد اقتناها أثناء تجواله الطويل بأقطار المشرق كما ترك بها كتابه في الحديث المعروف « بعوالي الحديث » والمشهور « بعوالي السفاقصي » (46) .

أمّا أبو طاهر التجيبي (47) القيرواني فلا نعلم من إقامته بالأندلس إلّا قصّة ليلة من لياليه في سنة 16/406 - 1015 بمدينة مالقة حيث اكتشف وهو عليل مجلس أنس فيه قصف ولهو وطرب يصفه لنا في صحيفة من كتابه المعروف - خطأ - « بالمختار من شعر بشار » (48) هي من أجمل ما كتب العرب من الفنّ القصصي (49) . فلئن ضنّت أخبار أبي طاهر التجيبي بما قد يكون من مساهمته المباشرة في ثقافة الأندلس بما أوتي من علم واسع في اللّغة والأدب فقد ترك لنا في هذا النصّ أجمل صورة عرفناها لما كانت عليه حياة اللّهو والفنّ التي كادت في الأندلس تبلغ حدّ الأساطير . والنصّ لا يقتصر على وصف أحد مجالس الأنس عند الخاصّة المترفة بل يفيدنا أنّ ليالي

(46) انظر ترجمة ابن الضابط السفاقصي في كتابنا « الحياة الأدبية . . » ص ص 92 - 93 .

(47) عن أبي طاهر التجيبي نظر المصدر السابق ص ص 153 - 158 وفي فهرس الكتاب .

(48) لقد بينا في كتابنا المذكور (ص 154) أن عنوان كتاب التجيبي لعله « الرائق بأزهار الحداثق » .

(49) جاء هذا النص من ص 14 إلى ص 16 في كتاب أبي طاهر التجيبي المطبوع بعنوان « المختار من شعر بشار » ونقله الشرواني في كتابه « حديقة الأفراح لإزالة الأثر » ط. القاهرة سنة 1298 ص ص 142 - 144 ونشر المرحوم ح. ج. عبد الوهاب قسماً منه في المنتخب المدرسي من الأدب التونسي ط. القاهرة 1944 ص 73 .

الأندلس في جميع الأحياء وعند جميع الطبقات هي ليالي لهو وعزف وغناء . فهو بذلك وثيقة ثمينة وفنيّة رائعة لمعرفة حياة أهل الأندلس آنذاك . ولا يبعد أن يكون غير واحد من كتّاب الأندلس كالفتح بن خاقان أو ابن حيّان أو ابن بسّام قد استوحاه في الحديث عن مجالس الأُنس وحياة اللّهُو في بلاطات ملوك الطوائف .

ولو لم ينج كتاب التجيبي هذا من التلف الذي أصاب جلّ المؤلّفات التونسيّة القديمة لفقد هذا النصّ الفريد في نوعه وفي قيمته الفنيّة والتاريخية نسبته إلى كاتب قيرواني . ذلك أنّه جاء ضمن مختارات أدبيّة في كتاب « حديقة الأفراح » للشرواني المذكور منسوباً إلى « بعض الأدباء » (50) بدون ضبط اسم مؤلّفه . وقد لاحظ المستشرقون المهتمّون بتاريخ حضارة الأندلس قيمة هذا النصّ (51) فاستعملوه ساكتين عن نسبته بل جاهلين إيّاها لأنّ مرجعهم الشرواني لم يذكر اسم مؤلّفه . أمّا المستشرق بيريس (52) فقد خرج من ذلك السكوت ونسب النصّ دون تردّد إلى « رحالة شرقيّ » — Voyageur oriental — ومعروف أنّ واحداً من القراء لا يفكر في أنّ « رحالة شرقيّاً » بالنسبة إلى الأندلس يمكن أن يكون إفريقيّاً على أنّ العبارة الفرنسيّة تعني بلاد المشرق لا غير .

وهكذا تذوب هويّة الكتاب الأفارقة — كذوبان هويّة مكّي بن أبي طالب — ونسبة النصوص الإفريقيّة — كنسبة نصّ التجيبي هذا — . وسنرى

(50) جاء النص في الباب الرابع المخصص «لطائف نبهاء الروم والمغرب وحكايات تشتمل على ما هو المعجب المطرب» حيث يقول الشرواني : « حكى بعض الأدباء قال : كنت بمدينة مالقة من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة . . . » .

(51) انظر ليفي بروفنصال في كتابه المذكور « تاريخ اسبانيا الإسلامية »
E. Lévi-Provençal : *Histoire de l'Espagne musulmane*, t. III 449, n° 1.

حيث يشير إلى أن Palacios و Ribera و Pérès قد استعملوا هذا النص .

(52) في كتابه
H. Pérès : *La poésie andalouse en arabe classique au XIè siècle*,
Paris 1937, p. 381, n° 2.

عند الحديث عن علي الحصري أن هذا التلف قد بدأ منذ عصر الطوائف ذاته بل وقد رأينا بعد كيف أن ابن أبي زرب القرطبي قد جحد وروود « رسالة » ابن أبي زيد القيرواني إليه ورام سلخها عندما أرسل إليه مؤلفها بنسخة منها وذلك منذ القرن الرابع . فأين لنا مع هذا أن نصل إلى إحصاء أو شبه إحصاء لما كان من مساهمة الأفارقة في الحياة الثقافية بالأندلس ؟

* * *

وفي منتصف القرن الخامس حلّ بأرض القيروان البلاء الأعظم . لقد أزال بنو هلال ومن والاهم من الأعراب الزاحفين من الصعيد المصري ملك المعزّ بن باديس وخرّبوا القيروان فتشرّد أهلها ومن بينهم العلماء والأدباء والشعراء .

ولقد تبسّن من بعض ما مرّ ذكره أن التّيارين الذين كانا يمثلان مساهمة الأفارقة في ثقافة الأندلس بل وفي تثقيف أهل الأندلس — وهما رحلة أهل الأندلس إلى إفريقية في طلب العلم ورحلة كتب الأفارقة إلى الأندلس — لم ينقطعا بسقوط القيروان . لكنّ مساهمة علماء مدرسة القيروان وأدبائها في ازدهار الثقافة الأندلسيّة بعد زحف بني هلال ستبرز خاصّة في هجرة عدد غير قليل منهم إلى الأندلس حيث شاركوا في الحياة الثقافيّة فكانوا من خيرة أعلامها في عصر الطوائف والمرابطين . وانضاف دورهم هذا إلى دور رحلة طلبة الأندلس إلى إفريقية وإلى دور الكتب الإفريقيّة في نموّ الثقافة الأندلسيّة فكان لذلك كلّهُ أحسن الأثر في هذه الثقافة في عصر الطوائف والمرابطين .

ولئن رحّب أهل الأندلس بالمهاجرين الأفارقة قبل الزحف الهلالي فتبنّوا مكّي بن أبي طالب إلى حدّ إذاخته في جنسيّتهم واحتفوا بابن الضابط وبقوا على العهد من مودّته بعد رحيله عنهم فإنّ علماء الأندلس وأدبائها لم يلبثوا أمام تدفّق اللاّجئين إليهم إثر خراب القيروان أن تحرّجوا من هؤلاء الذين يسمّونهم « الطارئين » وضجروا من كثرتهم وطول باعهم وبعد

صيتهم وحظوتهم عند ملوك الطوائف . ولكن الغيرة والحسد والمنافسة من دواعي الخصب والازدهار في الحقل العلمي والأدبي وإن في قصة ابن شرف القيرواني ومواطنه عليّ الحصري بالأندلس لأحسن شاهد على ذلك .

دخل ابن شرف الأندلس بدعوة من المعتضد عباد ملك إشبيلية وجهها إليه ولعله وجهها إلى رفيقه ابن رشيق أيضا وهما بصقلية بعد مغادرتهم إفريقيا . على أن ابن بسام لا يذكر دعوة من المعتضد لابن رشيق بل يقول إن ابن شرف « استنهض صاحبه ابن رشيق ... في أن يجوزوا معاً إلى الأندلس فأنشأ ابن رشيق قائلاً : [بسيط]

مِمَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أُنْدَلُسٍ
سَمَاعُ مُقْتَدِرٍ فِيهَا وَمُعْتَضِدٍ
أَلْقَابُ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا
كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحًا صَوْلَةَ الْأَسَدِ (53)

فاستوطن ابن شرف الأندلس وبقي ابن رشيق بصقلية إلى أن مات .

لكن ابن شرف بدوره لم يغتر لدعوة ملك إشبيلية « لتواتر الخبر عن المعتضد بازورار ركنه وخشونة حزنه » على حدّ تعبير ابن بسام (54) . فلقد عرف ابن شرف من أخبار المعتضد مع غيره من الشعراء أنه كان يستهويهم فإذا أتوه ومدحوه منعهم من مغادرة حضرته إشبيلية وأساء معاملتهم فلا يعودون من عنده — إذا عادوا — إلا بغصة منه . يقول ابن بسام عن ابن عبد البر وقد أفلت من مخالب المعتضد : « إنّه انسلّ من يد عباد انسلال الطيف ونجا منه واسأله كيف » . ثم يقول : « وكان ابن شرف هذا ممّن فهم منحاه

(53) الذخيرة. القسم الرابع المجلد الأول صص 171 - 172 . والبيتان في مصادر أخرى كثيرة مع اختلاف في روايتهما وقد نسبنا إلى غير ابن رشيق .

(54) المصدر السابق ص 182 .

[يعني منحى عبّاد المعتضد] وصمّ عن رقاہ فلم يجتمع مع عبّاد في صعيد ولا أهدي له السلام إلاّ من بعيد» (55). فكان يرسل إليه مدائحه ويتلقّى منه الصلات دون أن يدخل بلده (56). لكنّ العلاقة الأدبيّة بين ابن شرف والمعتضد كانت رغم ذلك مثمرة جدّاً وإن كانت على طريق المراسلة : يقول ابن بسّام : « وكان أوّل ما بعث [ابن شرف] إلى المعتضد بإشيلية خمس قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره أبا الوليد بن زيدون » (57). ووافاه ردّ على ذلك بقلم الوزير الكاتب أبي محمّد بن عبد البرّ المذكور فيه إطرأ كثير وتنويه بشهرته التي قال عنها إنّها سبقته إلى الأندلس وفيه تشوّق إلى رؤيته . ولكنّ ابن شرف قبل هدايا المعتضد ولم يلبّ دعوة وزيره ابن عبد البرّ كما أنّه لم يلبّ دعوته هو فإنّه — على حدّ قول ابن بسّام أيضا — « لم يزل على ملوك الطوائف يومئذ يتطوّف ويتنقّل في الدول من منزل إلى منزل ومن بلد إلى بلد إلاّ حضرة المعتضد فإنّه كان يخاطبه وينشده : [وافر] أَحِبُّكَ فِي الْبَسْتُولِ وَفِي أَبِيهَا وَلَكِنِّي أَحِبُّكَ مِنْ بَعِيدِ (58) ومثل هذا الشعر لابن شرف في المعتضد كثير روى منه صاحب الذخيرة نماذج شهية لا تخلو من السخرية والاستهزاء بالمعتضد أحيانا .

وكان ابن شرف في تجواله بين مدائن الأندلس يجادل العلماء ويساجل الشعراء ويمدح الملوك والوزراء ويراسلهم ويراسلونه . فمن ذلك مراسلته المظفر بن الأفطس ملك بطليوس وجواب الوزير أبي مروان بن قزمان عنه . ومدح أبا عبد الرحمان بن طاهر صاحب مرسية كما مدح الأمين بن السقاء

(55) المصدر السابق ص 171 .

(56) على أن من أخبار ابن شرف ما يفيد أنه توفي بإشيلية سنة 460 ومعروف أن المعتضد كان ملكا عليها إلى أن توفي سنة 461 .

(57) الذخيرة. القسم الرابع . المجلد الأول ص 172 .

(58) المصدر السابق ص 181 .

مدبر الدولة الجمهوريّة بقرطبة والمنصور حفيد ابن أبي عامر . وكان قد فكّر في إهداء كتابه « أبكار الأفكار » إلى باديس بن جبّوس صاحب غرناطة عند وصوله إلى الأندلس قبيل سنة 1063/455 وتردّد في ذلك وأخيرا أرسل به إلى المعتضد (59) .

ورغم أنه نزل ببرجة وأقرّ بها عائلته فإنّ معظم إقامته كانت عند المأمون بن ذي النون ملك طليطلة وقد حظي عنده وكان الأديب البارز في بلاطه . جرى ذكر المتنبي يوما في مجلس المأمون فتناول الحاضرون على شاعر سيف الدولة ومنهم ابن شرف فقال للمأمون « بأن يشير إلى أيّ قصيدة شاء من شعر المتنبي حتى يعارضها بقصيدة تنسي اسمه وتعفي رسمه » (60) وهو غرور منه يدلّ على منزلته عند ابن ذي النون ومكانته بين شعراء قصره . وفي حفل ختان حفيد ابن ذي النون هذا سنة 1063/455 يدخل الشعراء من طائرين وقاطنين أي غرباء وأندلسيين « يقدمهم شيخهم المقدّم من جماعتهم ذلك اليوم محمد بن شرف القيرواني القريب عهده بالهجرة فأذن لهم بالإنشاد بحسب تطبيقهم فتقدّمهم ابن شرف فأنشد » (61) . هذا كلام ابن حيّان ينقله صاحب الذخيرة وفيه شهادة منهما لابن شرف بالزعامة على الإطلاق في ذلك البلاط . ومهما كان تحامل ابن بسّام على ابن شرف معروفا فإنّ نزاهته العلميّة جعلته لا ينقصه حفظه عند الحكم والنقد الأدبيّ بل هو لا يقتصد في عبارات الإطراء والاستحسان . فقد سمّاه « الأديب الكامل » وقال عند الحديث عن مؤلّفاته : « ولأبي عبد الله [ابن شرف] عدّة تواليف أفاضها بحارا وأطلعها شموسا وأقمارا » (62) .

(59) المصدر السابق ص 177 .

(60) المصدر السابق صص 23 - 24 .

(61) المصدر السابق ص 139 .

(62) المصدر السابق ص 169 و 171 .

وكان موقف الأندلسيين المعاصرين لابن شرف شبيها بهذا الذي رأيناه من موقف ابن بسّام منه . فقد تقبلوه مرحبين منه بالعالم الفقيه متشوقين إلى أشعاره وأخباره . لكن سرعان ما غلبت الغيرة والحسد فقلبوا له ظهر المجن . وردّ ابن شرف على الشرّ بالشرّ واشتدّت المهاجاة والمساجلات بينه وبين الشعراء فانتعش بذلك الجوّ الأدبي .

ثم إنّ ابن شرف القيرواني صاحب « مقامات » فقد وضع عشرين مقامة عارض بها مقامات الهمذاني وقد وصلنا منها ثلاث في ذخيرة ابن بسّام (63) . ولم يؤلفها ابن شرف بالقيروان بل بالغرقة إمّا بصقلية وإمّا بالاندلس - وهو الأرجح - فقد يكون إذن للاندلس شرف ظهور هذا الفنّ الجديد لأوّل مرّة بها دون غيرها من أرض المغرب على يد ابن شرف بعد أن عرّفه إبراهيم الحصري لطلابه من شباب القيروان والمغرب والاندلس (64) .

ومن فضل ابن شرف على الاندلس وعلى الثقافة بربروعها ابنه أبو الفضل جعفر بن محمد بن شرف . وهو من أشهر أدباء الاندلس وشعرائها ومفكرّيها في عصر الطوائف والمرابطين . ولد بالقيروان سنة 3/444 - 1052 وهاجر إلى صقلية صحبة أبيه وأهله سنة 6/447 - 1055 ومنها معهم جميعا إلى الاندلس قبيل سنة 1063/455 . وهو وإن لم يتعلّم بالقيروان فقد اعتنى أبوه بتأديبه وتعليمه اعتناء كبيرا حتى أخرجه نسخة منه يكاد يفوقه أو هو يفوقه في نظر

(63) يقول ابن شرف : « فأقمت من هذا النحو عشرين حديثا » (مسائل الانتقاد بتحقيق ش بلا ط. الجزائر 1953 ص 4 مع ترجمتها إلى الفرنسية وهي :

Ibn Charaf : *Questions de critique littéraire*, éd. et trad. française par Ch. Pellat, Alger 1953, p. 4-5.

ويقول ابن بسّام : « ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابيه وصب فيها على قاله . . . » (الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ص 196) . والكلام عندهما يتعلق بنص واحد هو « مسائل الانتقاد » وهو نص يضم اثنتين من المقامات الثلاث التي وصلتنا من مقامات ابن شرف العشرين . وقد فصلنا القول في مقامات ابن شرف في كتابنا المذكور : « الحياة الأدبية بإفريقية في العصر الصنهاجي » صص 406 - 408 .

(64) انظر أخبار ابن شرف القيرواني في كتاب « الذخيرة » وفي كتابنا « الحياة الأدبية » بالرجوع إلى فهرسهما .

علماء الأندلس يقول ابن بشكوال في كتاب الصلة (65) : « له رواية عن أبيه وأخذ عنه ديوان شعره ... وكان من جلة الأدباء وكبار الشعراء وكان شاعر وقته غير مدافع وطال عمره وأخذ الناس عنه وله تواليف حسان في الأمثال والأخبار والآداب والأشعار وكتب إلينا بإجازة ما رواه وصنّفه بخطّه وتوفي ... سنة 534 هـ / (40 - 1139) . وهذه الميادين التي نبغ فيها أبو الفضل جعفر بن شرف هي التي اشتهر بها أبوه فأخذها عنه . وكان يعرف بالوزير وبالفيلسوف (66) .

أمّا عليّ الحصري فقد كنّا نعتناه يوم عرفنا منذ خمس عشرة سنة بالكتاب الذي ظهر فيه قسم كبير من تراثه بقولنا : « علم من أعلام الأدب العربيّ المعلومين تبرز صورته عملاقيّة ... » (67) . فلنقل الآن في هذا البحث وقد استجاب عليّ الحصري من مدينة سبتة إلى دعوة أخته من المعتمد بن عبّاد (68) : علم من أعلام الأدب العربيّ المعلومين يدخل الأندلس فيحدث فيها الضجّة الكبرى : يفزع الناس إليه ليأخذوا علوم القرآن عن « الأستاذ الأعلى » (69) فيفيد منه خلق كثير في مدن عديدة من بلاد الأندلس . لكنّ عليّ الحصري لم يكن يقتصر على تعليمهم بل كان يتشامخ على علماء الأندلس ويحتقرهم ويطرح عليهم الأسئلة شعرا في قالب ألغاز قصد تعجيزهم جريا في ذلك على غرار المعريّ (70) . ويصف ابن بسّام إقبال أهل الأندلس على

(65) ج 1 ص 129 - 130 حيث ذكره في باب « الغرباء » : فابن بشكوال لا يعتبره إذن أندلسيا .

(66) وقد أنجب جعفر هذا ولدا كان شاعرا أيضا هو محمد بن جعفر بن محمد بن شرف قضى حياته كلها بالأندلس .

(67) في حوليات الجامعة التونسية عدد 1 ص 125 .

(68) هـ. بيريس في كتابه المذكور ص 213 . H. Pérès : *La poésie andalouse*, op. cit. p. 213 .

(69) ابن دحية في المطرب ص 13 .

(70) ابن الجزري في طبقات القراء ج 1 ص 550 ذكره محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى في كتابهما « أبو الحسن الحصري القيرواني » ط. تونس 1963 ص 63 وابن الجزري ينعى الحصري بقوله : « أستاذ ماهر وأديب حاذق » (المصدر المذكور ص 64) .

شعره فيقول : « فتهادته ملوك طوائفها تهادي الرياض النسيم وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس المقيم » (71) وتمادت سيرورة شعره في الأندلس إلى عهد ابن بسّام (بداية القرن السادس) إذ يقول : « ... وأنشدني شعره غير واحد من أهل عصري وكان بحر براعة ورأس صناعة وزعيم جماعة » (72) .

فطوّف الحصري في بلاد الأندلس بين إشبيلية ومالقة ودانية وبلنسية والمرية ومرسية منذ أن « طرأ على الأندلس منتصف المائة الخامسة » (73) يمدح الأمراء والوزراء والعلماء والقضاة والأصدقاء .

وفي الأندلس تهجره زوجته الشابة الجميلة وكان يهيم بحبّها . ولعلّ « معشّرات » علي الحصري وكذلك « تخميسه » كانت من وحي هذه المأساة وهي « من أروع ما عرفه الأدب العربيّ من أغاني الغزل الصافي الكتيب » (74) .

وفي الأندلس أيضا مات أعزّ أبنائه عليه عبد الغني حوالي سنة 1082/475 « فراح يندب رزاه الجلل » في كتاب « اقتراح القريح واجترح الجريح » فيجتمع لدى الحصري الشاعر الأديب لوعة العاشق واحترق التاكل وبراعة لغويّ خضعت لمشيئته العربيّة وأسرارها وقوافيها وأوزانها فينشأ عن كلّ ذلك شعر « المعشّرات » [و« التخميس »] و« اقتراح القريح » آية من آيات الفنّ البشري لا العربيّ فحسب ... في شعر ضمّ قراب ثلاثة آلاف (3000) بيت هو كله أنّة متواصلة من قلب جريح » (75) .

(71) الذخيرة . القسم الرابع . المجلد الأول ص 246 .

(72) المصدر السابق صص 245 - 246 . انظر أسماء بعض من أخذ عنه شعره وعلوم القرآن في « نفع الطيب » ج2 صص 154 - 155 وفي « أبو الحسن الحصري . . » صص 65-67 .

(73) الذخيرة . ق 4 ج 1 ص 246 .

(74) مما كتبناه في « حوليات الجامعة التونسية » العدد الأول . سنة 1964 ص 127 .

(75) مما كتبناه أيضا في المقال السابق الذكر صص 127 - 128 .

وقد وصلنا هذا الشعر الوجدانيّ كلّهُ لكنّ أشعاره الأخرى ممّا قاله في ما يقرب من نصف قرن فإنّها ضاعت وتلاشت ومن يدري لعلها نسبت إلى غيره من شعراء الأندلس أو انتحلها غيره من هؤلاء الشعراء . ذلك أنّ الحصري لم يحفل بها بعد المصيبة الكبرى التي أصابته في ابنه ولم يعتن بجمعها بل تركها — كما قال : « لمن يعيها فيسرقها أو يدعيها يرثني بغير نسب ويملكها بغير نسب » (76) .

ذلك أنّ جلّ هؤلاء الشعراء كانوا له حسّاداً أعداء تأجّجت نار المهاجة بينه وبينهم فكان يفحّمهم بأهاجيه اللاّذعة وكانوا يكيّدون له الكيد العظيم : فقد اتّهموه بالتلفّظ بالكفر فقال شاكيّاً : [طويل]

أَصِيبَ قَصِيدٍ فِيهِ كُفْرٌ فَنَيْطَ بِي
وَكَمْ شَاعِرٍ قِيلَتْ عَلَى فِيهِ أَشْعَارُ
وَمِنْ كُلِّ كَفٍّ قَدْ رُمِيتُ بِصَخْرَةٍ
وَفِي رَاحَتِي لَوْ أُمَكَّنَ الرَّأْيُ أَحْجَارُ (77)

وسعوا به لدى أمير مرسية أبي عبد الرحمان بن طاهر فمدحه مفنّدا أكاذيبهم كاشفا عن دسائسهم مدلاً على ممدوحه بعبقريّته فيخطبه قائلاً في قصيدته الخالدة « يا ليل الصبّ » : [متدارك]

أَتَرَاكَ غَضِبْتَ لِمَا زَعَمُوا وَطَمَى مِنْ بَحْرِكَ مُزْبِدُهُ
... مَالِي ذَنْبٌ فَتُعَاقِبْنِي كَذَبَ الْوَاشِي تَبَّتْ يَدُهُ (78)

وفي كلّ ذلك ، في أشعار الحصري وأشعار خصومه وأصدقائه التي لم تصلنا وفي الخصومات العلميّة والأدبيّة التي ثارت حوله وشارك فيها من علماء

(76) انظر المرجع السابق صص 126 — 127 .

(77) «أبو الحسن الحصري القيرواني» ص 132 . ولعلها بحجرة عوض بصخرة والرمي عوض الرأي .

(78) المصدر السابق ص 148 .

الأندلس وأدبائها خصوم له وأنصار ، حركة أدبية علمية أثرت الحياة الثقافية بتلك الربوع في عصر الطوائف .

ولئن غادر الحصري بلاد الأندلس (سنة 1/483 - 1090) غريبا كما حلّها غريبا واستقرّ بطنجة حيث مات سنة 1095/488 فإنّ الأندلس قد طبعت شعره بطابعها الخاصّ إذ كان علي الحصري من شعراء الموشّحات . فيكون قد ساهم أيضا في إثراء أدب الأندلس في أخصّ ما يمتاز به أدب الأندلس وهو فنّ التوشيح (79) .

أمّا ابن فضال الحلواني فقد بدأ يتحدّى أدباء الأندلس ويستنهضهم بشعره وهو بصقلية : خاطب شاعرا أندلسيا بأبيات يستنقص فيها من شأن أعلام الشعر الأندلسيّ ساخرا من كبيرهم على الإطلاق الرمادي (المتوفى سنة 1013/403 أو 1022/413) وابن درّاج القسطلي (المتوفى سنة 1030/421) في هجاء حجاجي لا نعرف ماذا كان ردّ مخاطبه عليه غير أنّ ابن بسّام راوي القصّة يقف منها موقفا غريبا جدّا لم نعهده البتّة من صنّاجة الأندلس الذي ما وضع كتاب الذخيرة إلّا للإشادة « بمحاسن أهل الجزيرة » . فهو يسترحم الشاعر الإفريقيّ « لشيخى العشيرة ولساني الجزيرة » أو على الأقلّ لواحد منهما تاركا الآخر فريسة لاستهجانه (80) .

(79) عن علي الحصري انظر دراستنا في « الحياة الأدبية La vie littéraire » صص 181-185 (وفي الفهرس) وفي دائرة المعارف الإسلامية بالإنكليزية والفرنسية (ج3 صص 661-662) : فصل « الحصري علي » وفي « حوليات الجامعة التونسية . العدد الأول سنة 1964 صص 125 - 141 .

(80) الذخيرة ق 4 ج 1 ص 296 حيث يقول الحلواني من أبيات :

[بسيط] :

إن ابن دراجكم لو قام من جدث وصحت يوما به من خلفه ضرطا
وليس يحسد طبعي أبجيسكم فكيف أنت لقد جشمتني شططا

في تعليق المحقق : « أب جنيس وهي كنية الرمادي بعجمية الأندلس (جنيش : الرماد) » وإثر الأبيات يقول ابن بسّام : « قلت أنا - صاحب الكتاب : نشدتك الله يا أبا الحسن [يعني الحلواني] إلّا ما رفقت بأسيريك فإنهما شيخا العشيرة ولسانا الجزيرة فإن كان ولا بد فالرمادي فإنه كان أقلّ طيشا وأودع عيشا . وأما ابن دراج فمنخوب القلب مشترك اللب يكفيك منه هول الإتهام والإنجاد وبيع الشعر في سوق الكساد » .

ثم يدخل الحلواني الأندلس (في النصف الثاني من القرن الخامس) فيمدح ملوك طوائفها ويراسل أدباءها وينظم بها شعرا وجدانياً رقيقاً منه قصيدة في الغزل ينسجها على منوال قصيدة لمواطنه ابن رشيق القيرواني فيعرفها لأهل الأندلس حتى إذا ما وصلت القصيدتان إلى ابن بسّام قارن بينهما وأعجب بقصيدة ابن رشيق وفضلها على معارضة الحلواني (81). فاستقطب الحلواني بذلك كله جانباً عريضاً من الحياة الثقافية بالأندلس أبى إلا أن يشرك فيها — عن طريق المعارضة — مواطنه ابن رشيق الذي لم يقدّر له الدخول إلى الجزيرة .

ولا سبيل في هذه الدراسة إلى تقصّي أخبار الأفارقة في الأندلس بعد زحف بني هلال ومشاركتهم في ثقافتها زمن الطوائف والمرابطين . فلنقتصر على ما فصلنا من أمر ابن شرف وعلي الحصري والحلواني دون استعراض جميع من وصلتنا أخبارهم مبعثرة ومنهم الفحول كابن البرّ التميمي اللغوي الذي دخل الأندلس سنة 1068/460 (82) وابن الكلاعي السفاقصي (ت 505/1111) (83) وخليفة القروي (ت 1120/514) (84) من العلماء . ومن الشعراء الأدباء ابن الفكّاه الذي دخل الأندلس بعد سنة 1067/460 وابن الطلاء وعبد العزيز بن محمد السوسي أحد الشعراء الذين جاؤوا ينشدون الشعر في حفل ختان حفيد المأمون ابن ذي النون بقيادة ابن شرف سنة 1063/455 والمرادي الفقيه الشاعر (ت 1096/489) الذي لم يترك ملكاً من ملوك الطوائف دون أن

(81) انظر ما كتبناه عن هذه المعارضة في « حوليات الجامعة التونسية » عدد 6 سنة 1969 صص 75 - 76 من فصل بعنوان « شعر ابن رشيق » . انظر أيضاً الذخيرة ق 4 ج 1 صص 290 - 291. انظر ترجمة الحلواني في كتابنا « الحياة الأدبية بإفريقية . . » صص 80 - 87 .

(82) كتاب التكملة لابن الأبار ص 671 - 675 .

(83) المصدر السابق ص 269 حيث يقول ابن الأبار إن القاضي عياض قد ذكره .

(84) المصدر السابق ص 309 .

يزوره مادحا والذي كانت له مع علماء الأندلس مجادلات فقهية كلامية وابن أبي كديّة (ت 1118/512) والزكري (ت حوالي 1126/520) (85) .

* * *

ولمّا تصدّى أدباء الأندلس إلى الردّ على رسالة مواطنهم ابن غرسية الشعوبى كان ممّن شارك في هذه الحملة أبو الطيب عبد المعنم بن منّ الله القيروانى المتوفى سنة 1100/493 وهو إذاك بالأندلس . لقد أحدثت رسالة ابن غرسية ضجّة كبرى في الأندلس نجد بعض صداها في ما رواه عنها ابن بسّام . فهو يقول : « ... وهي رسالة ذميمة ... ذمّ فيها العرب وفخر بقومه العجم وأراد أن يعرب فأعجم . وإذ قد أفضى بنا القول إلى ذكرها فأنا أثبتها هاهنا بأسرها وأجتلب فصولا من رسائل جلائل لبعض أهل العصر ردّوا عليه وبكتوه حتّى أسكتوه وإن كانت طويلة فهي غير مملولة لما تشتمل عليه من المآثر العربيّة والمفاخر الإسلاميّة » (86) . وقد وصلتنا رسالة ابن غرسية كاملة وأربع رسائل في الردّ عليها (87) أطولها رسالة ابن منّ الله وإن كان ابن بسّام لم يوردها كاملة لطولها حسب شرط كتابه الأساسيّ وعنوانها هو « حديقة البلاغة ودوحة البراعة المونقة أفنانها المثمرة أغصانها بذكر المآثر العربيّة ونشر المفاخر الإسلاميّة والردّ على ابن غرسية في ما ادّعاه للأمم الأعجميّة » .

والناظر في هذه الردود كلّها يتبيّن أنّ رسالة ابن منّ الله هي الوحيدة التي جاء الردّ فيها ردّا رصينا منظّما يعتمد الجدل المنطقي بينما كانت الرسائل الأخرى في أغلبها شتما وسبّا فاحشا أحيانا مع قليل من الجدل الجدّي . ولا ريب أنّ ابن بسّام قد تبيّن هذا فكان يفضلها على الردود الأخرى : فزيادة

(85) انظر ترجمة هؤلاء الأدباء في كتابنا المذكور « الحياة الأدبية بإفريقية في العصر الصنهاجي » حسب الفهرس .

(86) الذخيرة . ق 3 ج 2 صص 704 - 705 .

(87) نشرها عبد السلام هارون في سلسلة « نوادر المخطوطات » . القاهرة 1953 ، المجموعة الثالثة صص 229 - 330 نقلا عن الذخيرة وعن مخطوط بمكتبة الاسكوريال .

على طول ما اختاره من فصولها فإنه اقتبس من عنوانها عبارته « المآثر العربية والمفاخر الإسلامية » التي ذكرناها في تنويهه بالردود التي أثبتتها ثم يكرر هذا الاقتباس عندما يذكر ردّ ابن منّ الله فيقول : « وممن ردّ أيضا على ابن غرسية وأجاد ما أراد أبو الطيب عبد المنعم القروي برسالة أثبت أكثر فصولها على طولها لاشتمالها على المآثر العربية والمفاخر الإسلامية ... » (88) . ويقول عند اقتضابه بعض مختاراته من فصول هذه الرسالة : « قال صاحب الكتاب : وبينّ أبو الطيب بطلان قولهم في احتجاج طويل أضربنا عنه تركا وتخفيفا للتثقيل » (89) .

والذي زاد رسالة ابن منّ الله قيمة فاقت بها ما وصلنا من الردود الأخرى صبغتها الأدبية المتمثلة خاصة في فصاحة اللغة ومثانة الأسلوب وتبحر صاحبها في معرفة أحوال العرب وأشعارهم وأخبارهم وهو أساس الأدب . وكان ابن منّ الله من أبرز من أنجبته « مدرسة القيروان » الأدبية في القرن الخامس . فكان بذلك من أحسن من يمثلها بالأندلس . عصر الطوائف والمرابطين لا يقل دوره في المساهمة في ثقافة الأندلس عن دور أترابه الذين وصفنا حركتهم الأدبية بها ابن شرف وعلي الحصري والحلواني (90) .

وبعد هذا الاستعراض السريع لتثقف أهل الأندلس على علماء إفريقية وكتبهم من ناحية ولمشاركة الطارئ من إفريقية في الثقافة الأندلسية مشاركة مباشرة من ناحية أخرى نتعرض الآن إلى مساهمة طريفة في نوعها هي المساهمة من بعيد ونقتصر من هذا النوع من المساهمة على حديثين أدبيين نعتقد أن لهما قيمتهما في ما نحن بصددده .

(88) الذخيرة. ق 3 ج 2 ص ص 722 - 723 .

(89) المصدر السابق ص 741 .

(90) انظر ترجمة ابن منّ الله وتحليل رسالته في كتابنا المذكور « الحياة الأدبية . . » ص ص 193 - 197 .

أمّا أحد هذين الحداثين فهو ما ذهبنا إليه منذ سبعة عشر عاما من إمكانية تأثر ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة » بكتاب إبراهيم الحصري المسمّى « المصون في سرّ الهوى المكنون » .

لقد ذكرنا في مقال نشرناه سنة 1964 (91) مدى أثر إبراهيم الحصري في ازدهار الأدب بإفريقية والمغرب والأندلس في القرن الخامس . ولتحديد الجيل الذي تأثر بصفة مباشرة أو غير مباشرة بتعليم الحصري وجب ضبط تاريخ وفاته وقد اختلفت فيه المصادر القديمة والحديثة فمنها ما ذكرت به سنة 1022/413 لوفاته ومنها ما ذكرت به سنة 1061/453 ومنها ما ذكر به التاريخان معا . فأثبتنا بعد البحث المدقّق أنّ إبراهيم الحصري توفي سنة 413 لا سنة 453 .

ثم ذكرنا أنّنا عثرنا على مخطوط من كتاب الحصري « المصون في سرّ الهوى المكنون » وأنّ النظر في هذا الكتاب يكشف عن شبه متين بينه وبين كتاب ابن حزم « طوق الحمامة » وأنّ التأثير ظاهر بين الكتّابين . وبما أنّه من المتعارف أنّ ابن حزم المتوفّى سنة 1064/456 انتهى من تأليف كتابه سنة 1026/417 فإنّ إثبات وفاة الحصري في سنة 413 يجعلنا نجزم بأنّ ابن حزم هو الذي تأثر في كتابه « طوق الحمامة » بكتاب « المصون » للحصري . وأعلنّا عن هذا الاكتشاف مرارا عديدة : في المقال المشار إليه آنفا والمنشور بحوليات الجامعة التونسية ثم في مؤتمر المستشرقين الدولي المنعقد بدلهي الجديدة عاصمة الهند سنة 1964 ثم بفصل « الحصري » الذي ظهر بإمضاءنا في دائرة المعارف الإسلامية الصادرة باللغتين الفرنسية والانكليزية (92) حوالي سنة 1970 وأخيرا في كتابنا « الحياة الأدبية بإفريقية ... » الصادر بالفرنسية سنة

(91) في « حوليات الجامعة التونسية » العدد الأول سنة 1964 صص 9 - 18 .

(92) ج 3 صص 660 - 662 من الطبعة الجديدة باللغة الفرنسية .

1972 (93) . ثم حالت الشواغل دون الرجوع إلى هذا الموضوع لإثبات هذا التأثير « يبحث كنا نرجوه - إذّاك - قريبا » .

لكنّ غيرنا تصدّى للموضوع ونشر مقالا في العدد العاشر (مارس - أبريل 1978) من مجلة « الفصيل » التي تصدر بالرياض من المملكة العربية السعودية بإمضاء محمد بن سعد الرويشد - واسمه في الحقيقة الشويعر لا الرويشد - غير أنّه عوض أن يواصل البحث الذي فتحناه لإثبات تأثير ابن حزم بالحصري بطريقة النقد الداخلي للكتابين فإنّه لم يتردد في الاستحواذ على اكتشافنا مدّعيّا لنفسه الفضل كلّ الفضل في ذلك . وحاولنا الردّ على هذه السرقة في مقال أرسلنا به إلى مجلة « الفصيل » في إبانته لكنّ « الفصيل » لم تنشره فعرضناه على مجلة « الفكر » التونسية فنشرته مشكورة (94) . وقد رام محمد بن سعد الشويعر الجواب على هذا المقال فلم يأت بشيء وتوارى جميع النشريات التي أشرنا إليها شاهدة عليه بما ادّعاه باطلا (95) .

(93) ص 24 .

(94) الفكر عدده 5 فيفري 1980 ص ص 9 - 16 .

(95) نشر رد السيد محمد بن سعد الشويعر في العدد العاشر - جويلية 1980 - من مجلة الفكر ص ص 114 - 122 . وعلمنا من هذا « الجواب » أن مقالنا المنشور بمجلة الفكر قد نشر أيضا بمجلة « الثقافة » المصرية في شهر فبراير 1980 وهو تاريخ نشره بمجلة « الفكر » التونسية وليس لنا في ذلك يد ولا به علم . أما هذا الجواب فقد جاء خليطا من الاعتراف من ناحية والاتهام وطمس الحقائق وسوء التأويل المقصود من ناحية أخرى . وعلمنا من هذا الجواب أيضا أن السيد الشويعر نشر مقالات أخرى عن الحصري منها ما يقول إنه تعرض فيه إلى وفاة إبراهيم الحصري بالبحث (ص 119) . وهذا هو بالضبط موضوع دراستنا في المقال المذكور المنشور سنة 1964 بالعدد الأول من « حوليات الجامعة التونسية » تحت عنوان « حول وفاة إبراهيم الحصري » رجحنا فيه بالحجة العلمية وفاة الحصري سنة 413 على سنة 453 الواردة في المصادر القديمة والدراسات الحديثة. فيكون الشويعر بذلك قد جزأ دراستنا أجزاء استعمل كلا منها لبناء مقال أو كتاب يدعي فيه مثل ما ادّعى في علاقه « طوق الحمامة » « بالمصون » . والآن فهنا معنى اتهامه إيانا بأن استنتاجاتنا في دراستنا جاءت مجملّة . فقد اعتبرها إذن مقطعا له سمح لنفسه بحل ما أوجزنا وتفصيل ما أجمّلنا لا التعمق في البحث التعق الذي كنا تمنينا أن تسمح لنا به الظروف إذا اتاحت لنا العودة إلى هذا الموضوع ولا لتوسيع ميدان المعرفة التي هي كسب مشاع بين الناس ومجال مفتوح لجميع الباحثين بل لاستغلاله وتبنيه وادعائه الإتيان فيه بالجديد بل والاكتشاف مطلقا .

ثم إن تصرفات السيد الشويعر تجاوزت استغلال مقال كنا نشرناه فعمد إلى تبني نتائجه وتحليلها في مقالات متعددة : فهو كأنه قد عقد العزم على السطو على ما نشرنا

إلاّ أنّ الذي يهمنّا في هذا المقام هو أنّ أثر إبراهيم الحصري القيرواني في تأليف ابن حزم كتابه الفذّ « طوق الحمامة » لم نبق ندّعيه وحدنا . أمّا تفاصيل هذا التأثير فهي مبسّطة في ما ذكرنا من الدراسات فلا داعي للرجوع إليها هنا .

أمّا الحدث الثاني من هذا النوع من المساهمة الذي سمّيناه « مساهمة الأفارقة من بعيد في ازدهار الثقافة الأندلسيّة » فهو يتمثّل في ردود الفعل الأندلسيّة التي أثارها رسالة ابن الرّيبب القيرواني المتوفى سنة 1029/420 (96) .

لقد كتب ابن الرّيبب إلى الوزير أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم الكاتب الأندلسيّ الشهير المتوفى سنة 1046/438 رسالة يلوم فيها علماء الأندلس على تقصيرهم في الإشادة بمحاسن أهل بلدهم . وقد أجاب أبو المغيرة بن حزم

من دراسات - العربية منها والفرنسية - لتأليف مقالات وكتب بإمضائه . فقد أعلنت مجلة « الحياة الثقافية » الصادرة بتونس في عددها الخامس (سبتمبر - أكتوبر 1979) ص 127 عن كتاب لمحمد بن سعد الشويحي عنوانه « الحصريان » وهو كتاب الشهر للنادي الأدبي بالرياض . ولئن لم نطلع بعد على هذا الكتاب فإننا نعلن أنّ هذا الموضوع هو موضوع الفصل الذي نشرناه منذ أكثر من عشر سنين بدائرة المعارف الإسلامية الصادرة باللغتين الأنكليزية والفرنسية وعنوانه « الحصري » يشمل الحصريين إبراهيم وعلي وهذا هو مفهوم عنوان كتابه « الحصريان » . ثمّ إننا خصصنا لهذين الأدبيين الدراسات التالية :

(1) حول وفاة إبراهيم الحصري (حوليات الجامعة التونسية، العدد الأول سنة 1964 صص 9 - 18) .

(2) تقديم كتاب أبو الحسن الحصري القيرواني (المصدر السابق العدد الأول صص 125 - 141) .

(3) من شعر علي الحصري (المصدر السابق عدد 7 سنة 1970 صص 21 - 34) .

(4) فصل « الحصري » في دائرة المعارف الإسلامية .

(5) دراسة عن الحصريين وأدبهما في كتابنا « الحياة الأدبية . . » الصادر بالفرنسية سنة 1972 (صص 20-25 و 181 - 185) . واستعملنا في هذه الدراسات جميع المصادر والمراجع المعروفة واستنتجنا منها ومن تراث الرجلين المطبوع والمخطوط كل ما يمكن استنتاجه . فلم يبق للسيد الشويحي مجال للبحث والاكتشاف سوى ما ذكرناه من استغلاله زبدة أبحاثنا وتبنيها .

فلننبه معشر الباحثين وكافة القراء مشهرين بهذا الصنيع الذي يترفع عنه أهل البحث العلمي التزيه .

(96) عن ابن الرّيبب القيرواني المعروف بالقاضي التاهرتي وعن ردود الفعل بالاندلس على رسالته انظر كتابنا « الحياة الأدبية . . » صص 102 - 104 و صص 291 - 293 .

هذا برسالة أعرض ابن بسّام عن نقلها لنا كاملة واقتصر على إثبات بداية هذا الردّ وكلّه لإطراء لابن الرّيب وذكر لبعده صيته بين أدباء الأندلس .

ثم إنّ عليّ بن حزم الشهير صاحب « طوق الحمامة » وهو ابن عمّ أبي المغيرة عثر على رسالة ابن الرّيب بعد موت مؤلّفها فردّ عليها برسالته الشهيرة في فضائل الأندلس . وقد أثبتّها المقرّي في نفح الطيب (97) وأعاد نشرها صلاح الدين المنجد في مجموعة تضمّنت أيضاً رسالة ابن الرّيب ورسالة لابن سعيد الأندلسي وأخرى للشقندي تحت عنوان « فضائل الأندلس وأهلها » (98) .

ورسالة ابن حزم رسالة ثمينة بالنسبة إلى الأدب الأندلسي لبراعة صاحبها في الردّ وفي الحجاج على فضائل قومه ولأنّه أثبت لنا عددا كبيرا من أسماء المؤلّفين الأندلسيين وعناوين كتبهم إلى حدّ أن الأستاذ ش. بلاّ Charles Pellat أطلق على ترجمته لهذه الرسالة وما أضاف إليها من دراسة عنوان « ابن حزم مفهرس الأندلس ومدّاحها » Ibn Hazm bibliographie et panégyriste de l'Espagne musulmane (99) .

ففضل رسالة ابن الرّيب القيرواني على الثقافة الأندلسيّة أنّها جعلت أدباء الأندلس يعتنون بتراثهم ويحصونه ويبرزون مزايا مؤلّفيهم . وسيمتدّ صداها وأثرها إلى ما بعد عصر الطوائف والمرابطين لأنّ ابن سعيد المتوفى سنة 1286/685 سيعود إلى الردّ على ابن الرّيب بتذييله رسالة ابن حزم بل ويستنجد على ابن الرّيب برسالة كان ألّفها الشقندي (المتوفى سنة 1232/629) في فضائل رجال الأندلس أيضا .

(97) صحبة الرسائل الثلاث التي سيأتي ذكرها : نفح الطيب ط. القاهرة 1949 ج4 صص 152-208، وط. بيروت ج3 صص 156-222 .

(98) أنظر تقديمنا لهذا الكتاب في « حوليات الجامعة التونسية » عدد 5 سنة 1968 صص 119-123 .

(99) في مجلة « الأندلس » Al-Andalus عدد 19 سنة 1954 صص 53-102 .

ولئن ذكرنا الشقندي وابن سعيد وهما متأخران عن العصر الذي يهمننا
فذلك لأننا نرى لرسالة ابن الريبب دورا أهم من إثارة الردّين الذين حرّهما
كاتبان من عصر الطوائف هما أبو المغيرة بن حزم وعلي بن حزم . ذلك أن
رسالة ابن الريبب القيرواني كانت السبب في نشأة نوع من التأليف عند علماء
الأندلس — أو في انتشاره — هو التأليف في فضائل الأندلس وأهلها اشتهرت
منه خاصّة رسائل أبي المغيرة بن حزم وعلي بن حزم والشقندي وابن سعيد .
ولكن ... من يدري ؟ لعلّ لرسالة ابن الريبب أثرا آخر هو — إن كان —
من أجمل مساهمة أدباء القيروان في ازدهار الثقافة الأندلسيّة في عصر الطوائف
والمرابطين : نعم . من يدري ؟ لعلّ ابن بسّام — وهو أشهر أدباء عصر
الطوائف والمرابطين — وهو من هو في تعصّبه للقوميّة الأندلسيّة قد قصد إلى
الردّ الحاسم على ابن الريبب وعلى كلّ من رام انتقاص أهل الأندلس عندما
وضع كتابه الكبير . ألم يسمّه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ؟ وأيّ غرابة
في أن يتصدّى ابن بسّام العظيم إلى الردّ على ابن الريبب ؟ ألم يكن ابن حزم
عظيما والشقندي ؟ وابن سعيد ؟

* * *

وبعد فلئن عدّنا من أعلام الأفارقة علماء وأدباء وشعراء كانوا من
حلية الأندلس في عصر الطوائف والمرابطين ، ولئن بيّنا أن مدرسة القيروان
كانت برجالها وكتبها معينا غزيرا كرع فيه أهل الأندلس ، ولئن أبرزنا في
النهاية دور بعض الأفارقة في تحريك السواكن من بين علماء الأندلس وأدبائها
فما ذلك إلّا توفية بشرط الموضوع الذي قصدنا إلى البحث فيه وهو وجه من
وجوه العلاقات الثقافيّة بين إفريقية والأندلس فليس ذلك للتباهي بإفريقيّة
على الأندلس لأنّ هؤلاء وأولئك جميعا الأفارقة ومن أخذ عنهم من
الأندلسيين وإن كانوا من ثمرة مدرسة القيروان إن قليلا أو كثيرا فإنّهم قد
وجدوا بأرض الأندلس التربة التي أينع فيها غرسهم والبيئة التي تفتّحت فيها

قرائحهم . ومهما كان تأصلهم الإفريقي ثابتا متينا فإنّ قصدا الحقيقي من هذا البحث ظاهر في عنوانه الذي اخترناه له وهو : « مساهمة الأفارقة في الحياة الثقافية بالأندلس في عصر الطوائف والمرابطين » . فما هذه الثقافة في نهاية الأمر إلاّ ثقافة الأندلس .

ولا شكّ في أنّ مجرى التاريخ في كلّ من القطرين هو الذي جعل العلاقات الثقافية بينهما في القرن الخامس علاقة عطاء من إفريقية وأخذ من الأندلس . فلقد وصلت مدرسة القيروان الأدبية إلى أوج ازدهارها في النصف الأوّل من القرن الخامس . ولما اكتمل هذا الازدهار في منتصف القرن حلّت بأرض القيروان نكبتها الكبرى ففرّق أهلها أيدي سبا وقصد الكثير منهم بلاد الأندلس حيث كانت سوق الأدب إذّاك نافقة : فقد اقتسمت البلاد طوائف شتى اتخذت رؤساؤها لأنفسهم ألقاب الملوك فعفرها بملوك الطوائف وتنافسوا في استجلاب العلماء والأدباء والشعراء تشبّها في ذلك بالخلفاء والأمراء في تزيين مجالسهم والتباهي فيما بينهم فنشطت بذلك الحركة الثقافية في الأندلس وازداد شغف القوم بطلب العلم فأقبلوا على حملته ببلادهم وشدّوا الرحال إلى جهابذته ببلاد المشرق والمغرب فوجد الأفارقة في ذلك كلّ ميدانا صالحا تفتّحت فيه قرائحهم ونفقت بضاعتهم فكانت لهم اليد العليا على الثقافة بالأندلس تعليما وإنتاجا وتنشيطا .

ثم إنّ التاريخ يواصل مجراه وقد تتغيّر الأوضاع فتتقلب التيارات : فعندما يشتدّ تقلّص المملكة الإسلامية بالأندلس في القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر م.) ويهاجر رجال العلم والأدب منها إلى تونس في عهد بني حفص فإنّهم سيساهمون بدورهم مساهمة عريضة في الحياة الثقافية بالربوع الإفريقية . ولعلّنا إذا ما قرأنا عن هذه المساهمة (100) ثمّ

(100) انظر على الخصوص دراسة الأستاذة أودات بيتي (من كوليج فرنسا بباريس) في نشرة « معهد الآداب العربية » بتونس عدد 127 سنة 1971 صص 93 - 121 :

فكرنا في ما أثبتناه أثناء دراستنا هذه من دور الأفارقة في الثقافة الأندلسية في عصر الطوائف والمرابطين حقاً لنا أن نتمثل بدورنا بقوله تعالى : « هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » (101) .

وتلك هي سنة تلاقح الحضارات في تداول الأخذ والعطاء بينها بلا إنقطاع .

الشاذلي بويحيى

(101) سورة يوسف 65/12 .

Odette Petit : *Les relations intellectuelles entre l'Espagne et l'Ifriqiya aux XIIIè et XIVè siècles*, I.B.L.A. n° 127, Tunis 1971, pp. 93-121.